بين الفصحى ولهجاتها

لمعالي الدكتور السيد محمد رضا الشبيبي
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

اجتاز الشرق القريب في الفترة الواقعة بين الحربين الكونيتين الأولى والثانية مرحلة حافلة بالأحداث ، اتسمت بنمو الحركة الفكرية ؛ ويصح أن تدعى فترة الوعي واليقظة

امتازت هذه المرحلة بإثارة كثير من الموضوعات حمي فيها الوطيس ، وتعددت فيها المعارك ، ومنها معركة القديم والجديد في مختلف نواحي الحياة ، من سياسية إلى اجتماعية واقتصادية ، ثارت بين المجددين والمحافظين أينما وجدوا ، وفي مقدمتها معركة اللغة والكتابة العربية واللهجات ، إذ ظهرت دعوة ترمي إلى اصطناع هذه اللهجات الاقليمية المحرفة عن الفصحى في بعض أقطار الشرق القريب . وحاول المحاولون أن يثيروا حربا عوانا على اللغة ، ووضعوا في هذا الباب ما وضعوه من كتب ورسائل ومقالات

يهول بعض المعنيين في هذا الشأن بعنف الصراع القائم بين الفصحى واللهجات المحلية ، ويشيرون إلى قيام ضرب من تنازع البقاء بين الجانبين ، ويضربون الأمثال من اللغة اللاتينية ولهجاتها ، بل من اللغة العربية وأخواتها الساميات على اعتبار أنها لهجات تفرعت من أصل سامي بائد ، ثم يسرفون في التكهنات والاحتمالات

ظن فريق من هؤلاء الباحثين أنهم أول من طرق باب البحث عن اللهجات على هذا الشكل الحديث ، وأنه لم يحم حول هذا الموضوع أحد من قبل ، مع أن غير واحد من أعلام الأدب واللغة وأئمة القراءات أشاروا إلى فساد اللسان ، وإلى اضطراب اللهجات اللغوية المحكية ، وشذوذها في عصورهم . ولهؤلاء اللغويين القدماء عناية فائقة بالبحث عن اللهجات ، ومن هذا القبيل تلك الرسائل والكتب التي جردت فيها تلحن فيه العامة أو الخاصة . وكم من معركة أثيرت بين اللغويين في هذا الباب مرماها انتقاد اللهجات وإصلاح ما اعتراها من فساد ، وهي كتب كثيرة ، وجلها متداول معروف . ولما استفحل شأن اللهجات في العصور الأخيرة ، وطغى على اللغة سيل جارف من الكلمات الدخيلة ، وفطن المعنيون بذلك إلى الخطر الذي يتهدد العربية من هذه الناحية ، بادر اللغويون المحدثون إلى العناية بالبحث عن أصول الكلمات العامية وردها إلى الفصحى ، وأوجدوا أوضاعا لغوية ، ومصطلحات عربية ، تقابل الأوضاع والمصطلحات الدخيلة ، واختاروا أسماء لمسميات هجمت بها علينا هذه الحضارة الحديثة ، وقد وضعت في ذلك معجمات ورسائل لغوية كثيرة

من ذلك يتضح لنا أن البحث عن اللهجات قد اتخذ أطوارا شتى يعرفها من ألم بتاريخ آداب اللغة العربية في مختلف العصور . وهذا ابن خلدون عالج موضوع اللهجات المتفرعة عن لغة مضر على وجه يفهم منه أنها كانت متميزة في عصره وهو يسميها « لغة الجيل » ، ويقارن بينها وبين « اللغة المضرية » وقد أفرد في مقدمته المشهورة فصولا للبحث في هذا الشأن . منها فصل عنوانه « لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير » ، وآخر عنوانه « لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر » إلى فصول أخرى ، يشير ابن خلدون في بعضها إلى مميزات لهجة عصره أو لغة جيله كما يقول ، ومن تلك المميزات زوال الإعراب ، وظهور الوقف في آخر الكلمات

من ذلك نعلم أن اللهجات بمعنى من المعاني قديمة قدم اللغة . ومن هذا القبيل لهجات القبائل اللغوية في الجاهلية وصدر الإسلام ، وهي لهجات استند إليها القراء في تخريج القراءات ، وأشار إليها المؤلفون في هذا الفن . وتعتبر هذه اللهجات كلها فصيحة مع أن بعضها شاذ مهجور . ثم تفرع عن الفصحى نوع آخر من هذه اللهجات المحلية نشأ فيه التحريف وفسد النطق ، فأصبح للكتابة لغتها ، وللكلام لهجته ، وذلك في الأقطار التي استقر بها العرب والمسلمون الفاتحون في أولى عصور الدول الإسلامية بعد عصر الراشدين

ما من شك في أن الشقة تباعدت ، ولم تزل ، بين اللغة

(*) نص المحاضرة التي ألقاها معالي الدكتور الشبيبي في مؤتمر المجمع ، ولقد أثارت هذه المحاضرة في الأعضاء اهتماما شديدا بموضوعها فتلقوه تلقيا مستفيضا يدور على التأييد والشكر

الأصلية وفروعها ، وأن الجفاء والشذوذ تفاقم بمرور الأيام حتى زعم من زعم أن بين هذه اللهجات المتعددة من جهة ، وبين أمها الفصحى من جهة أخرى، صراعا مريرا، وأن نتيجة هذا الصراع تغلب إحدى هذه اللهجات واندماج سائرها فى لهجة بعينها ، ثم تصبح لغة مستقلة نصطنعها فى الكتابة والكلام سواء بسواء . ومن المحال فى زعم هؤلاء الزاعمين أن تبقى الفصحى محتفظة بوحدتها الأولى زمنا طويلا مع هذه الفوارق . وهم يتوقعون أن تتحول هذه اللهجات يوما ما إلى لغات مستقلة قائمة بنفسها ، غير مفهومة إلا للمتكلمين بها ، كما أن الفصحى ستكون لغة غير مفهومة للمتكلمين بهذه اللهجات بالمرة ، وهو فيما نرى = إسراف فى التكهن والرجم بالغيب . ويؤيد بعضهم على ذلك قائلا : إن لهجة القاهرة الشائعة هى لغة المصريين فى المستقبل . ولماذا لا يقال فى لغة المجتمع المصرى هذه أنها هى لغة الطبقة المثقفة المتعلمة بعينها ، وهى هذه الفصحى السليمة الموحدة من حيث النطق، ومخارج الحروف، وإن كانت عارية من الإعراب ، لا تلك اللهجات الشاذة

يقالى أنصار اللهجات بآرائهم قائلين : إن هناك صراعا بين الأم وفروعها ، أو بين الفصحى ولهجاتها ، ونحن نقول لهم : لماذا لا يسفر هذا الصراع أو تنازع البقاء عن نتيجة حاسمة يصح فيها الصحيح ، ويبقى الأصلح نزولا على حكم مذهب النشوء والارتقاء

أو يدوم صراع لنوى مدة تضاعف الألف والثلاثمائة سنة ؟ والحق أنه ليس هناك صراع بل هناك شذوذ وجفاء ، وهناك ازورار وانحراف فى هذه اللهجات المحلية ، من مصرية وعراقية وشامية ومغربية ، فما هذه اللهجات سوى اللغة العربية محرفة عن أصلها . كانت الفصحى معربة فى كل الوقف محل الإعراب ، وكان التلفظ والنطق موحدا فطرأ ما طرأ عليهما من الاضطراب والفساد والتحريف والتشويه بسبب هجرة المسلمين والعرب الفاتحين إلى شتى الأقطار البعيدة عن الجزيرة العربية

ليس من الإنصاف ولا من الصواب أن ندعو ما نحن بصدده صراعا بين الأصول والفروع، بل هو ضرب من الشذوذ والانحراف لا بد أن ينتهى إلى صلح ووئام . ومن الخطأ قياس من يقيس ما حدث للفصحى بما حدث للاتينية ، أو السامية البائدة ، ثم يسرفون فى التكهن ، والاحتمالات البعيدة ، ويتوقعون أن تتخلى الفصحى عن مكانتها لتدخل فى ذمة التاريخ فى بلد كالعراق ومصر والشام والمغرب ، كما دخلت اللاتينية فى ذمة التاريخ فى الأقطار المأهولة بالشعوب اللاتينية . وقد تكفلت بحفظ الفصحى وحياطتها وخلودها معجزة القرآن ؛ ولولا إعجاز القرآن لجاز أن يحدث لهذه اللغة ما حدث من قبل ذلك للغة اللاتينية

تجتاز هذه الأقطار المأهولة بالناطقين بالضاد مرحلة عصيبة ، وهذه الشعوب الآن أحوج ما تكون إلى التفاهم والتعاون ، ووحدة اللغة . ولو اصطنعنا هذه اللهجات الفاسدة لاستحال تحقيق الوحدة اللغوية ، ولتعسر التفاهم أو التخاطب بين الشعوب المذكورة

ما أكثر عيوب هذه اللهجات ومساوئها ، وفى مقدمتها أنها عاجزة عن تكوين تلك الوحدة؛ فلكل قطر لهجته ومميزاتها التى تجعل منها أداة غير صالحة للتفاهم فى أمة تسعى لتحقيق وحدتها اللغوية

ولنا أن نقول فى مساوئ اللهجات أكثر من ذلك ، فإنها فى القطر الواحد يسرع إليها الانحلال ، فهى عرضة للاضطراب والفساد . فها نحن أولاء نجد لكل إقليم عندنا فى العراق ، بل لكثير من الحواضر أحيانا لهجة خاصة ؛ فأهل الموصل فى الشمال لهم لهجتهم ، وهى لهجة لا يستسيغها أهل بغداد وأواسط العراق لاختلافها عن لهجتهم المألوفة . وأهل البصرة فى الجنوب ، يعرفون بلهجة تختلف بعض الاختلاف عن لهجة بغداد . وعلى كل فإن لهجة أهل الريف عندنا تختلف عن لهجة أهل الحواضر اختلافا ظاهرا . ومثل ذلك الاختلاف بين لهجات الريفيين القاطنين فى البطائح والبحيرات ولهجات القبائل الرحل فى العراق . وفى وسعك أن تعرف بلد المتكلم أو قطره من لهجته . وليس هذا الأمر فيما نرى خاصا بالعراق ؛ فمصر وسورية وأقطار المغرب لا تختلف عن العراق من هذه الناحية . والمعروف هنا أن لأهل الصعيد لهجة خاصة ، وتشبهها فيما قيل لى لهجة أهل الشرقية والبحيرة . ويبدو لى على ما أكد لى غير

واحد من أدباء مصر أن لهجة أهل الصعيد أقرب إلى لهجات أهل البادية فى بعض أقطار الشرق العربى كالعراق والشام ، فإن الحروف التى أصبحت أثرا بعد عين فى منطق أهل القاهرة والاسكندرية وما إلى هذه الجهات مثل القاف والثاء المثلثة ، والجيم الفصيحة، لاتزال باقية على حالها فى منطق أهل الصعيد ، وهى كذلك فى لهجة أهل العراق . فنحن بأمس الحاجة والحالة هذه إلى لهجة موحدة . ولا غنى لنا إذا أردنا التفاهم عن تكوين هذه الوحدة . وقد اعترف غير واحد من الأساتذة المصريين الذين زاولوا مهنة التدريس فى مدارس العراق بأثر الفصحى فى تكوين الوحدة اللغوية المنشودة

لماذا يعنى أبناء الشرق العربى ، بل شعوب الشرق الإسلامى باقتناء المؤلفات المصرية الحديثة ، بل باقتناء المطبوعات المصرية مهما كانت ؟ ولماذا هذا الإقبال العجيب على مؤلفات أعلام المصريين المعاصرين ؟ ولماذا يعجب من يعجب بترسلهم ؟ ولماذا يؤخذ من يؤخذ بسحر بيانهم فى أقطار الشرق والغرب المأهولة بمن ينطق الضاد

قد تعجبون إذا قلت لكم إن مرد ذلك لا إلى معالجة الأبحاث العلمية أو الموضوعات الأدبية فى حد ذاتها ، وإنما لسبك تلك الموضوعات وأدائها بأساليب لغوية أصيلة البيان مشرقة الديباجة . فهذه الطبقة من الكتاب والمؤلفين المصريين طرست على آثار الطبقة الأولى من المترسلين فى الفصحى ؛ وحذت حذو الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب والصابئ ، وغيرهم من أئمة المترسلين ، ونهجت منهجهم فى البيان والبلاغة . فشعوب العرب والاسلام وقد أصبحت شعوبا واعية يقظة فى عصرنا هذا تعنى العناية كلها ببعث الأساليب العربية الأصيلة ، وتعتز بإقالة الفصحى من عثرتها بعد كبوة طويلة . فعصرنا هذا يمتاز بنمو العاطفة القومية ، والشعور الصادق ، والاعتزاز بالأدب القيم ، والتطلع إلى بعث تراثه القديم

ولو أن هؤلاء الأعلام المصريين استجابوا لدعوة الدعاة إلى اصطناع اللهجات فيما يكتبون وينشئون لأعرض الناس فى الشرق كله من عرب ومسلمين عن اقتناء ما يصدر إليهم من مطبوعات هذه البلاد . ولا نبالغ إذا قلت لكم إننا نعتبر هذه الدعوة خطرا على اطراد الوعى ونمو الشعور . ونحن واثقون أنها دعوة ضعيفة لا تستطيع الصمود فى طريق هذا الوعى المطرد إلا كما يصمد الهشيم فى سبيل السيول الجارفة . فهذا الوقوف فى طريق اليقظة الزاهية مخالف لطبيعة الأشياء ، وهو إذا جاء عن طريق التساهل فى الوحدة اللغوية أدهى وأمر

لا غنى لشعوب الشرق العربى وفى طليعتها العراق والشام ، ولا غنى لشعوب الغرب العربى وفى طليعتها مصر وأفريقية ، عن هذه الوحدة اللغوية والرابطة المعنوية التى تتجلى فى الفصحى دون غيرها من اللهجات

نعم إن الصعوبة فى الفصحى تأتى من ناحية الإعراب ، وقد زال هذا الإعراب لأنه لم يعد عمليا فى عصرنا الحاضر على الأقل ، فلنحافظ على سلامة لغتنا الفصحى وتوحيد لهجاتها ، وتقويم النطق بها ، ولو بالتخلى عن الاعراب إلى حين إلا فى التلاوة وما إليها ، على أن ينظر فى حل مشكلة الاعراب ، وأن يعهد بذلك إلى المتخصصين المتقطعين لهذه الدراسات . ولا شبهة أن الكتاب الجيد تكفل بحفظ الاعراب . وقد يعلل زوال الحركات أو الاعراب عن أواخر الكلمات بأن العرب كانوا فى الجاهلية ، وفى صدر الإسلام مطبوعين على الحركة واحتمال المشاق فى حلهم وترحالهم وفى مغازيهم، فما كانوا يجدون جهدا أو كلفة فى تحريك أواخر الكلمات . فلما أخلدوا إلى الترف ، وسكنوا إلى النعيم فى المدن الزاخرة مالوا إلى الوقف والسكون . ولا يخفى أن الإعراب أو تحريك أواخر الكلمات يقتضى جهدا لا يقتضيه الوقف والاسكان ، ويمثل ذلك يعلل تسهيل بعض الحروف أو زوالها من النطق بتاتا فى هذه اللهجات حيث يتطلب النطق بها بذل بعض الجهد والطاقة

يجب أن تنتظم هذه الأقطار رابطة وثيقة من الوحدة اللغوية أو الوحدة الأدبية ، ولا يمنع ذلك قطرا من هذه الأقطار أن يستقل سياسيا عن سواه . وهكذا نحن نرى رابطة الشعوب البريطانية تعززها رابطة وثيقة من الوحدة اللغوية . وكم نوه قادة هذه الشعوب ، وكم أشادوا بذكر هذه الرابطة ، لأن فى تعزيز هذا النوع من الوحدة ضمانا أكيدا لكثير من مصالح الشعوب المذكورة معنوية ومادية ، ومدعاة لتعاونها

وتضافرها ، واتحادها في اللغات

يروى فيما يروى عن بسمارك بطل الوحدة الألمانية أنه قال : أهم حقيقة يمكن تسجيلها في القرن التاسع عشر هي الوحدة اللغوية بين بريطانيا وأمريكا . والظاهر أن هذا الداهية الألماني كان يحسب حساب هذه الوحدة ، وخطرها البالغ على الشعوب الألمانية . وقد قال تشرشل منذ أسبوع فقط أي في اليوم السابع عشر من هذا الشهر ، وهو يخطب الأمريكيين بواشنطون ما هذا نصه : يجب أن نعمل في القرن العشرين على تحقيق ما قاله بسمارك في القرن التاسع عشر ؛ هذا ما قاله تشرشل وهو يعني تعزيز رابطة اللغة الانجليزية في بريطانيا وأمريكا . وقد حملت الأمتان — والحق يقال — كل شيء في سبيل تعزيز هذه الرابطة حتى قادهما ذلك إلى الظفر الحاسم في الحروب الأخيرة

إذا أرادت مصر أن يدوى صوتها في المجامع الدولية ، بل إذا أرادت أن تكون مرهوبة الجانب فعليها أن تستند إلى تعزيز رابطتها معنويا وماديا بشعوب الشرق ، غير عابئة بهذه النعرات الاقليمية الهدامة ، واللهجات المضرة بتلك الجامعة اللغوية

أدى تشعب اللهجات واضطرابها من ناحية الاختلاف البعيد في النطق ، وفي إخراج الحروف وما يترتب على فساد النطق بها من الاستعجام إلى تكون مشكلة من المشكلات الاجتماعية ، بيد أن حلها ليس بمتعذر ، وهو يتوقف على إزالة هذه الفوارق بين لهجاتنا ، وتوحيد النطق والتلفظ ، وضبط الكتابة بموجب قواعد عامة توضع لهذا الغرض . وليس ذلك بمستحيل على العاملين المجتهدين . ولنأخذ مثلا كلمة (يصفق) إذ نجدها في اللهجة المصرية : (يصأف) ، وهي كلمة مستحيلة اجتمع فيها القلب والابدال ، وما اجتمع الداءان إلا ليقتلا . وفي سوريا يقولون (يصفأ) بقلب القاف همزة ، وفي العراق يقولون (يصفج) تنطق القاف كافا فارسية في العراق . ومثل ذلك في كلمة (أول) التي تلفظ بفتح الواو في العراق ، بينما يقال في اللهجة المصرية : (أول) بكسر الواو . وفي كلمة (اضرب) كما تلفظ في العراق بكسر الراء ، أما في اللهجة المصرية فيقولون : (اضرب) بفتح الراء مع قلب الضاد دالا ، إلى ضروب أخرى من اضطراب النطق وفساده في هذه اللهجات المختلفة باختلاف الأقطار . وعلى هذا لا مناص لنا من إصلاح النطق ، وتقويم الألسنة ، وهو الحل الوحيد لهذه المشكلة ، وفيه المخرج من هذا المأزق .

إنا نقرهم على أن الاعراب في اللغة العالية لم يعد عمليا ، وليس من السهل الالتزام به ، ولكن التخلي عن الاعراب في النطق شيء ، والتخلي عن سلامة النطق وتقويم اللسان وفتح الباب على مصراعيه للكلمات الدخيلة أو العامية الفاسدة شيء آخر . وفي وسع الدول التي تمتاز الآن بالفصحى وتنص في دساتيرها الأساسية على ذلك ، وهي الدول العربية ، وفي وسع الهيئات المعنية بشئون الثقافة في الدول المذكورة أن تعمل كثيرا في هذا الشأن

فما المانع الذي يمنعها من العناية بتوحيد المصطلحات في معاهد العلم وفي غيرها من سائر مصالح الدولة ؟ وما المانع الذي يمنعها من السعي الى إصلاح النطق وتوحيد اللفظ في اللهجات المختلفة على وجه يسهل التفاهم بها في المجتمع وبين الطبقات ؟ وما المانع الذي يمنعها من توحيد مناهجها في تعليم اللغة العربية ؟

لا نبالغ إذا قلنا إن المصري لا يفهم من العراقي في لهجته الشائعة الآن إلا بمشقة . وكذلك العراقي لا يكاد يفهم من المصري في لهجته إلا بعناء . ولا يعد تغاير الكلمات ، والتعابير المولدة خطرا كبيرا في حد ذاته على اللغة ، فان أكثر تلك الكلمات عربي الأصل والمادة ، ولكن الخطر الذي يتهدد الفصحى كامن في اضطراب النطق واختلاف النبرات وتباين اللفظ ، فهذا الفساد هو الخطر الذي يوسع الشقة بين لهجاتنا ، حتى ليخشى أن تصطنع اللهجة الفاسدة المولدة في بعض الأقطار مع الأيام ، وتنسى الأم التي ولدت منها . ولولا الثقافة الاسلامية التي تقوم على أساس متين من مدارسة الكتاب وتفسيره ، ورواية الحديث وحفظه ، لوقع ما كنا نخشاه

لقد آن للمجامع اللغوية ، وفي طليعتها هذا المجمع المعنى بشئون الفصحى ، وجعلها وافية بمطالب الحياة والحضارة في هذا العصر ، أن تعنى بهذه الناحية ، وبالبحث عن طريقة لضبط النطق واللفظ في الأقطار ، وتخليص لهجاتها من هذا الاضطراب . ولا يستحيل ذلك في عصر تعددت فيه وسائل التفهيم والتلقين . والمجمع بحكم وظيفته مطالب بالكف من غلواء دعاة اللهجات